العودة المتخيلة ـ ضفاف المستقبل

أنطون شمّاس*

باب الـوَعْـرَة (حكايات منحولة)

لقد أضاعت الحكاية كثيراً من التفاصيل،
لكني لا أريد أن أخترع ما لست أعرفه
خورخي لويس بورخِس

I

حبل الغسيل

لنتخيلْ، إذاً: في هزيع من الليل رجلان يصعدان الجبل، والدنيا أواخر الصيف. قد يكون هناك قمر ما نستدعيه ليختفي خلف الغيوم المتناثرة، قمر للمؤانسة، يبسط الشعاب أمامهما ثم يعود فيطويها، وهما يتلافيان ضوءه ويحتميان بالظلام، أو هكذا يتراءى للشخص المهرول في المقدمة، صاحب فكرة هذا السرى.

والكلام قد انتهى منذ ساعة، بعد أن قطعا الحدود التي يمكن أن تكون بين لبنان وفلسطين، أو هكذا تهيأ لهما، حين أصبحت أنفاسهما المتقطعة تهدّج الكلمات الخفيضة فتستحيل على الفهم، ولم يبقَ سوى جفاف الحلق. وكان لوقع الأحذية الرثة على التراب والحصى أطيط مكتوم (والـ "أطيط" كلمة نستعيرها من نجيب محفوظ الذي لا علاقة له بالموضوع)، لم تتناقله الأصداء المترامية في قعر الوادي الذي لم يكن، بعدُ، قد وطِئه ضوء القمر. وكانت الحصى تتطاير من تحت الأحذية بين الفينة والأُخرى، متسارعة في المنحدر، فيكتم السائر في المؤخرة أنفاسه تحسباً، بينما يتابع صاحب الفكرة الصعود ملتفتاً باللوم إلى صاحبه، ثم مدركاً أن اللوم في هذه الساعة ما هو إلاّ صرخة في واد. وكان من المفروض بعد هذه الساعة من الصعود أن يتراءى لهما البيت الذي في أطراف القرية بأضوائه الخافتة، كما كان الاتفاق. بيّن البيت؟ سأل الصاعد لاهثاً في المؤخرة، فتوقف صاحب الفكرة للحظة، يشتمه ويشتم البيت بينه وبين نفسه، من دون أن يلتفت إلى الوراء. ثم تابع الصعود محاولاً تجاهل العطش.

كان من الصعب التفريق بين الرجلين الصاعدين في شعاب الجبل في مثل هذه

* روائي ومترجم وأكاديمي فلسطيني.

الساعة، ولم يكن الأمر ضرورياً على أي حال من وجهة نظر الرجل المنتظر وصولهما في البيت، بسبّابة متأهبة على الزناد. كانا قد توقفا عند خيمة منصوبة في نهاية المنحدر قبل بدء الصعود، حين بدأ الليل يدلهمّ قبل شروق القمر، خيمة ظهرت أمامهما فجأة من جوف الظلام من حيث لا يدريان، إذ لم يكن من المفروض أن تكون هناك، فعرب المواسي كان قد شرّدهم عبر الحدود في العام المنصرم هادم اللذات ومفرّق الجماعات من بني إسرائيل، فكأن صاحب الخيمة كان متربعاً خارج التاريخ، قرب نار باهتة استطاعت بالكاد أن تضيء صبياً كان يتلقى اللوم في العتمة على تقصير فاتهما سببه حين انتصبا أمام الرجل وطرحا عليه تحية المساء كما اعتقدا يجب أن تُطرح. توقف الرجل للحظة عن نكث الموقد من دون أن يفاجئه ظهورهما المباغت، وردّ السلام باقتضاب من دون أن يتبيّن ملامحهما، مع أنه شعر بأنه يعرفهما. قال الأول إنهما يموتان عطشاً، فأشار الرجل برأسه إشارة مترددة، فسارا في اتجاه نهايتها، وقد لاحظ الأول أن الرجل جالس تحت حبل للغسيل، وأن الثياب المعلقة على الحبل وعلى دخان النار لا يحركها النسيم الآتي من صوب الوادي. الرجل الثاني، السائر في المؤخرة، وصل أولاً وتبيّن القِدرين قبل أن يرتطم بهما. توهجت النار فجأة فرأى كفكيراً معلقاً على حافة القدر. غَرَف بالكفكير وشرب، وسرعان ما انبثق القيء من فمه حين اكتشف أنه قد شرب مياه الغسيل. سخر منه الأول بصمت، وشرب من القدر الأُخرى ناظراً نحو النار وحبل الغسيل، وتذكّر، تذكارَ الحالم، شيئاً لم يخطر على باله من زمان.

II

دفتر التاريخ الذي ضاع

تأخرنا، قال أبي. وكان النهار قد انسحب من الدكان مرة واحدة، كما تنسحب القدم العارية من الحذاء، وغلّفت عتمة خفيفة روائح النعل والجلد والأصباغ، وكومة الأحذية القديمة التي أتمّ تصليحها ذلك اليوم. نزع "حُورة" الشغل كما كان يسميها، وعلّقها على مسمار قرب برميل الحنفية الصغير، المعلق في الزاوية فوق الدلو، واستدار ليغسل يديه، فلسعت يديَّ برودة المياه حتى قبل أن يفتح الحنفية. ثم أقفل الدكان ووضع المفتاح الكبير في جيب كَبّوته، وفتح يده وأغلقها على يدي وأدخل كلتيهما في جيبه حيث المفتاح البارد، ثم أخرجهما ريثما ينقل المفتاح إلى الجيب الآخر. سنشتري في طريقنا بعض البرتقال للعشاء، قال حين استكانت يدي إلى دفء يده، تحت زخزخة المطر. وحين وصلنا إلى الزقاق كانت أم جورج، التي تربطنا بها قرابة بعيدة، تلحّ على أبي حبيب، صاحب الدكان، أن يزن لها الكيلوغرامات الخمسة من البرتقال ليس دفعة واحدة، بل الكيلو بعد الآخر. فأطاعها ممتعضاً، وسألها أبي وهو ينشّف بيده شعري المبلل ويمسحها بكبّوته، لماذا تصرّ على ذلك، فصمتت وواصلت مراقبة وزن البرتقال. ثم خرجت، فتبادل أبو حبيب النظرات مع أبي وهو يزن له البرتقال. ثم وضع أبي برتقالنا في شبكة قطنية أخرجها من جيبه، فوقع المفتاح على الأرض، فانحنيت لالتقاطه. وحين خرجنا كانت أم جورج ما زالت واقفة أمام الدكان، ومن دون أن تلتفت نحونا

قالت كأنها تحدث نفسها، إن البائع الكريم يُرجّح عادة كفة البرتقال، فتضاف بهذه الطريقة برتقالة واحدة إلى كل وزنة. ثم اختفت في العتمة، وقد اشتد المطر، وسرت مهرولاً وراء أبي نحو البيت، وقد نسي أن يخبىء يدي في جيبه، يدي التي كانت لا تزال قابضة على مفتاح الدكان.

جلسنا حول طاولة الأكل الواطئة التي كان فيما مضى قد صنعها لنا النجار، زوج أم جورج، وقد توسطها القنديل الذي أشعلته أمي للتو، بضوئه الخفيض المكفهر، لئلا يستنفد كثيراً من الكاز، محاذرين أن تبقى أقدامنا فوق الطراحة، وألاّ تمسّ جليد المصطبة، وملتقطين ما تستطيعه ظهورنا المرتجفة من دفء الجمرات في "الكانون"، ذلك الوجاق الضائع في عتمة البيت، ومتفادين أسياخ الزمهرير التي تخترق أجسادنا من حيث لا ندري، وقد تجمدت أكفّنا الزرقاء حول جمر البرتقالة داخل نصف الرغيف، عشاء تلك الليلة.

باكراً في صباح الغد، اليوم الأخير من عطلة الشتاء، ألحّ عليّ أخي الذي يكبرني بأربعة صفوف، أن أرافقه إلى بيت حبيب، ابن صفّه، لاستعادة دفتر التاريخ الذي كان قد أعاره إياه لينسخ ما فاته من تاريخ العرب في فترة مرضه. كان المطر قد توقف، وكنا نرى أنفاسنا المتجمدة تهرول أمامنا، فنسارع للحاق بها، واضعَين أكفّنا تحت الإبطين التماساً للدفء، ومحاولَين ألاّ ندوس أكثر ممّا يجب على زجاج بُرك الوحل المتجمدة. مررنا في الزقاق أمام دكان أبي حبيب ورأيناه يفتح باب الدكان بحركات سريعة لتفادي صقيع الحديد، فسأله أخي إذا كان حبيب موجوداً في البيت. نظر إلينا الرجل مستغرباً، مهمهماً شيئاً لم نفهمه، وحجب كلماتِه ضبابُ أنفاسه، فواصلنا المسير، وقد سبقني أخي بخطوات غدت أكثر تصميماً بعد همهمة الأب.

كان حبيب قد تيتّم من أمه التي ماتت حين ولدت أختَه الصغرى التي تكبرني بصفّين، في عام النكبة، وكان بيتهم في الحارة الفوقا التي قلّما كنا نذهب إليها. حين طرق أخي الباب المشرف على الطريق من ارتفاع سبع أو ثماني درجات تآكل ما كان ذات يوم يجمع حجارتها، لم يُجبنا أحد. فاستدرنا وهممنا بأن نغادر، ثم عدلنا عن الفكرة. وأعاد أخي الطرْق، وسارع في إرجاع يده إلى دفء إبطه، ثم تراجعنا إلى الدرجة الأولى، نخبط أقدامنا تباعاً على حجارتها المحدودبة لنَفْض دبيب البرد. وبعد لحظات طويلة فتح حبيب الباب فاركاً عينيه، ثمّ تنحى جانباً داعياً إيانا للدخول بكلمات مكتوبة بالصقيع تدحرجت على المصطبة. كانت مصطبة الغرفة على مستوى أعيننا، فرأينا وراء قدميه العاريتين فراشاً عارياً طُرح على المصطبة العارية وقد انحسر اللحاف عن الجزء الذي كان قد احتلّه نومه. وحين أدرك ترددنا، استدار إلى الوراء وانحنى وأمسك بطرف اللحاف وصرخ بأخته أن تستيقظ نافضاً اللحاف عنها. رفعت الأخت رأسها، مفغورة الفم، محاولة أن تشد ثوبها المحسور إلى أسفل، لكن نظراتنا كانت قد استباحت عريَها وكلسونَها الممزق. فأشحنا بوجهينا كما علمونا. وبقفزة واحدة اختفت الأخت عن أنظارنا في عتمة الغرفة، فقال أخي بصوت عال: لازم تْرَجّعلي دفتر التاريخ. فتقدم حبيب ثانية من الباب وقال إن الدفتر ضاع. فتساءل أخي مبتسماً بصوت فيه

حنان مفاجىء من عدم التصديق: شو يعني ضاع؟ فقال حبيب: ضاع. وين ضاع؟ قال أخي، وأجال نظره في أنحاء الغرفة الفارغة. فقال حبيب: ضاع. ودوّرت عليه منيح؟ سأله أخي. فقلت لأخي بنفاد صبر: بيقلّك ضاع! فلطمني على وجهي بيده التي كانت تحت إبطه، ومع ذلك كانت باردة. وحين أدرت وجهي الملتهب مدّ حبيب يده نحو أخي بشيء أخرجه من جيبه، ووضعه في اليد التي صفعتني، وقال: خود هاى خلّيها معك ورَجّعلي يّاها لمّن ألاقي الدفتر. فضم أخي ذلك الشيء بين أصابعه، ثم استدار بغضب وأمرني بأن أتبعه. وبعد أن ابتعدنا عن بيت حبيب، وقف فجأة ثم أرجع يده إلى الخلف على مداها وباعد ما بين قدميه وألقى ما كان في قبضته بعيداً في عرض الطريق أمامنا، وسار بخطوات غاضبة وقد فرد يديه على جانبيه، ثم مسح اليد التي صفعتني وألقت بذلك الشيء بعيداً على فخذه من الخلف، كأنه يتخلص من ذكرى اللطمة وذلك الشيء. وركضت وراءه صائحاً أنني سأشكوه في البيت. فغمغم بعض الكلمات وواصل السير، وتوقفت أنا ونظرت إلى الأرض وكانت هناك، وقد غرق طرفها قليلاً في نقعة المطر، علبةٌ صغيرة من الصفيح الرمادي، فانحنيت والتقطتها، ومسحت بَلَلَها على صدري، وحين نظرت إليها أدركت للتو أنها أجمل ما رأيته في حياتي.

III

الرحلة الأخيرة

لِصَمْت البيت أصوات حين يستلقي على ظهره في الفراش ويغمر جسمه حتى ما فوق الأذنين بلحاف الريش الذي ما زالت بقبقة الإوز تتراجع أصداؤها في هشاشة حناياه حين يُحكم إلصاق اللحاف بأذنيه ويعيد يديه إلى صدره محاذراً ألاّ ترتفع أمواج الريش ويتسلل تيار الهواء البارد إلى قوقعة الدفء التي تحاول اليدان ألاّ تنتهكها بتحركاتها إذ تستعيد ذكرى يدَي أبيه المسجّى اللتين حاول أن يشبك أصابعهما فأخفق لأن الجثة تتيبس بعد الموت وتفقد ليونة الحركة لكنها تستعيدها حين تأنس له فتستجيب اليدان ليديه وتشتبك الأصابع في حوار الصمت الأخير الذي يفصل بين حزن وحزن كما يفصله الحزن الآن تحت اللحاف عن أصوات البيت التي تأتيه عبر الصمت كهنين المياه في طريقها إلى الجلاّية والزفير المكتوم لتلظي اللهيب تحت مراوح فرن التدفئة وأطيط الخشب في أرضية البيت الذي ما زالت أساساته تلتمس الاستقرار في عتمة أرض الغربة والمطر الذي يرتطم خفيفاً بزجاج النافذة التي فوقه وتستسلم قطراته لصمت السيلان مستعيدة مطراً آخر يغرق في صمت آخر يرشح إليه الآن مع دوائر الضوء المنمنمة الثلاث التي ترفرف على اللحاف كأجنحة العصافير التي داهمتها حيّة الحائط الرقطاء بين أغصان المشمشة التي كانت تظلل البئر في ذلك البيت المفقود فتسمرت في الهواء لا تريم في طيرانها وتحجرت شقشقتها للحظات في حناجرها المخنوقة ريثما تختار الحيّة من بينها هدفاً لانقضاضها ثم تدفقت بفيض فجائي بعد أن انشلّت الضحية بين الأنياب ففكت الشقشقة الأجنحة من رعب المواجهة وارتعشت الدوائر المنمنمة الثلاث على طيّة اللحاف أمام عينيه مملوءة برفرفة الأوراق التي تعترض أشعة

الشمس التي تخترق الثقوب الصغيرة الثلاثة التي يمر بها أحد الخيوط الممسكة برقاقات ستارة الأباجور البيضاء مكونة ـ على ما اكتشف ابن الهيثم قبل ألف عام ـ ثلاث شموس بحجم عين الديك على اللحاف الذي يحيط به الآن من كل جانب إحاطة الريح بمالك الحزين الذي سيسأله الثعلب للتو أين سيخبىء في تلك الحالة رأسه قبل أن ينقضّ عليه ويدق عنقه الذي أخذت حرارة أنفاسه تسري إليه الآن على هوامش النوم فتوحي إلى أذنيه بأن للدفء صوتاً كدفء الموقد الذي يلتفون حوله للاصطلاء شتاء ويتعالى منه نشيشُ الحطب الذي تلتهم النار بَلَلَه فيبعث استغاثات شرر فجائية تخاف منها وجوه الصغار المتحلقين حول الموقد فينتترون تلقائياً إلى الوراء خشية أن تصيبهم فيبتسم الكبار وتختلط أنفاسهم بالهبّال المتصاعد من الحطب المبلول وفناجين الشاي التي يرتشفون منها بشفاه مزمومة وحواجب مرفوعة لتلطيف حرارتها ثم يعودون إلى صمت الاصطلاء الذي يرسم حدودَه هسيسُ النار إذ أخذ يتسرب إلى تهويماته يرشقها بصور تُنطنط هشاشتها على شاشة الأحلام من داخل ريش اللحاف الذي استكان الآن إلى أصوات البيت كما استكان الفُلك المصنوع من خشب الصندل في رحلة السندباد الأخيرة إلى نومه وقد جرى به التيار إلى جوف الجبل

IV

بِسّة البَـصّة

عمتي ماري:

"بصيف الثماني وأربعين، سنة الاحتلال، إجِت إم ناصر عالبلد من البصّة تزور بنتها نجمة، سِلِفْتي إم نعيم، اللّي تغرّبت لفسوطة، وكانت إم ناصر جايبة بسّتها معها. كانت وين ما راحت ـ البسّة لاحقيتها عالدّعسة، إجرها على إجرها. وكانت كثير تحبّ بنتها، وأبصر إذا قلبها كان قايلّها شو بدّو يصير. يا حسرتي. الحرب كان صارت مولّعة، ولمّا تْرحّلوا من البصة بْتَشارين بِقِت إم ناصر علقانة عند بنتها بالبلد، وراح وقت كثير قبل ما سِمْعِت عن ولادها وبناتها بالمخيمات بلبنان. لا خبر ولا عِلِم. عَصّبت راسها بهالعصبة السودا فوق المنديل الأسود، وكانت تقعد طول نهار على درجات بيت إم نعيم، والبسّة قاعدة حدّها، يتحسّروا ويطّلعوا هيك للغرب ناحية البصّة. تفضّلي يا جارتنا يا إم ناصر، إشربي قهوة عنّا، تْقُلّك لمّا تِرجَع البصّة. قومي يا إم ناصر عالبيت بَرّدت الدنيا، تقلّك شو أفرق البرد ـ بيتنا بعيد بالبصّة. يا حسرتي، مرة كان عمّك مخايل مارق، ولا يُمْرُق اليوم، قالتلو شو شايف كَجارنا أبو خليل، وينتا بدّهن يرجعوا اللاجئين؟ وقّف هيك وتطلّع فيها وقلّها: يا إم ناصر تطلّعي عليّ منيح (هو كان صار منيح بالعُمِر) إذا أنا بَرْجَع شَبّ، اللاجئين بِرجعوا. والله يا عمتي لَفّت هالمنديل هيك على ثِمها، وشدّت عَصبتها وما عادت تحكي معو، لا مْنيحة ولا عاطلة، ليوم ما مات. وفوق الكل حتّى ما راحتش على جنازتو. يا حسرتي، هياهن الاثنين إلك طولة العمر، والبصّة ترحّلَتْ واتهَدّمت، ومن هون تايرجعوا اللاجئين حيا ورحمة."

قطّتان من نسل تلك البسّة كانتا ترافقان نجمة، أم نعيم، كظلّ مزدوج، بعد ذلك بأعوام

طويلة. تتمهلان حين تتمهل، وتلتفتان حيث تلتفت، وتقعيان على جانبيها حين تأتي لشرب القهوة عند أُختي المتزوجة من ابن العمّة ماري، جيران أم نعيم. وحين تقف على سطح "السيح"، وهو سطح البئر أمام درجات بيتها القديم، وتنظر إلى الغرب، تنظر القطّتان إلى الغرب وتأخذان بالمواء على مداه.

V

مغارة العجّانة

حدِّثني عمّا كنت تفعله مع أصحابك وأنت في سني، تقول له أحياناً ابنته عليا قبل أن تغرق في النوم. فَتُفَرفر الفراخ للحظة أمامه، تاركة بقعاً صغيرة من الدماء فوق مخدّتها. وبعد أن تنتظم أنفاسها، يقف أحياناً أمام الشباك ويزيح الستارة فيرى جداراً عبر الشارع وقد اتكأ عليه سلم خشبي، فيخرج من بيته ويهمّ بقطع الشارع نحو ذلك العالم الذي تلاشى، لكنه ما زال ههنا، على مبعدة أمتار من النافذة. ثم يتوقف في منتصف الطريق ناظراً إلى الخلاء الذي انفغر فجأة أمام ناظريه، والذي لا يستطيع مصباح الشارع أن يضيء منه سوى أمتار قليلة، فلا يرى سطحاً ولا سُلّماً.

كنّا نسطو على الأعشاش في الصباح الباكر، قبل أن تغرق طيور الليل في نومها النهاري، ونجمع في سلة الصيد الفراخ المرتعدة وجلاً، والتي لم تكن قد أدركت بعد أن لها أجنحة. ثم نرجع إلى البيت وننتهياً للمجزرة في ساحة الدار. نأخذ الزغلول المرتعد، ونضعه في ثقب في جدار الكلّين، ونتبادل "النقّيفة"، مصوبين الحجر المدور الصغير نحو الفرخ المصعوق، فإذا أخطأنا ـ انتقلت النقّيفة إلى الآتي بالدور، وإذا أصبنا أُعطينا فرصة أُخرى للقتل. كانت ستّي عليا تتوقف عمّا تكون مشغولة به على السطح، وتنظر مشدوهة إلى الذي يجري في ساحة الدار، فتخبط بكفّيها على صدغيها وتتحلّفنا بإبلاغ الوالد حين يعود من الدكان، غير مصدقة أن أطفالاً في هذا السن يمكنهم أن يقترفوا هذه الفظائع. وكنا نضحك منها، ويزيدنا استياؤها إقداماً على ما نفعل.

لاحظنا ذات يوم أن سعيد النجار، ابن الجيران، والذي كان يكبرني بصفّين، كان واقفاً طوال الوقت يراقبنا من وراء زاوية البيت القريبة من الشارع، مشدوه العينين مفغور الفم، لا يريم. فنشجعه على الانضمام إلى ما كنا نقترفه، فينظر إلينا بعينيه الجاحظتين ولا ينبس، ثم يستدير مرتعداً ويركض في اتجاه بيتهم في أسفل المنحدر.

وكانت قد تعذّرت عليه رؤية باب المغارة من السطح، مغارة دار النجار. فحتى لو اقترب من الحُرحاج، كما كانوا يسمّون حافة السطح، زاحفاً على ركبتيه اللتين تركت فيهما نتوءات الطين خدوشاً وأخاديد وفجوات لن تمّحي بسرعة، ومطّ عنقه في اتجاه دار النجار إلى أقصى ما يستطيع، فإن المغارة ستبقى حيث هي، مختبئة في أسفل السنسلة الشاهقة التي تفصل الدوّارة التي خلف البيت عن هوّة أرض دار النجار.

وكان الحُرحاج يبدأ في موضع لم يستطع أحد أن يعيّنه بدقة، تلك النقطة التي ينتهي فيها

استواء طين السطح، ويبدأ الانحدار الدائري للحُرحاج نحو أعلى مداميك الحائط الحجري.

وكان التحذير "يا ولد، إبعد عن الحُرحاج!" يقع داخل ذلك الغموض الذي يكتنف علاقة الأمكنة بأسمائها، شاملاً السطح بأكمله، بحيث يستحيل التمييز بين السطح وبين حُرحاجه، إذ يتحول السطح، في النهاية، وهو المساحة المحظورة على أي حال، حُرحاجاً مضاعف الحظر، ويصبح السلم الخشبي المتكىء على الجدار درجاً يؤدي إلى عالم عُلوي محرّم دخوله.

ولم يكن يخطر على بال أحد من الكبار أن يأخذ السلّم من مكانه ويلقي به بعيداً، فيضع بذلك حداً لغواية السطح. فالسلّم كان هناك لاستعمال الكبار فقط، وخصوصاً الجدّة التي كانت تقضي ساعات طويلة من كل يوم على ذلك السطح، ترقّع أجزاءه الرثّة بالطين وتسوّيها بالمِدحلة، وتواكب تتابع الفصول بما يمليه عليها الموسم.

فهناك تهوئة الفراش والأغطية بعيداً عن أعين الجيران، حين تظهر الشمس بين مِزَق الغيوم في نهاية الشتاء الطويل؛ وهناك تهوئة ما تبقّى من حبوب السنة الماضية وحمايتها من النمل الشره ومن العصافير الجائعة؛ وهناك تشريح التين وتسطيحه ليجفّ ويمكن تخزينه في قفير القُطّين الذي ستخفف حلاوة الصيف المخزونة فيه من مرارة ليالي الشتاء المقبل؛ وهناك نَشْر القمح المسلوق في نهاية الحصاد ليُرسَل جافاً إلى المطحنة؛ وهناك أشغال وأعمال خفية لا يمكن تنفيذها إلاّ فوق ذلك السطح العلني، كأن البيت الحقيقي هو ذلك الفضاء الذي ينفلت زمامه فوق السطح وليس ذلك الفضاء الأسير بين الجدران الأربعة تحته.

وهو لم يكن يريد أن يرى باب المغارة على أي حال، بل كان ينتابه الرعب حين يتخيل أنها قد تظهر أمامه فجأة من فوق السنسلة إذا مطّ عنقه بما فيه الكفاية. والمغارة لم تكن في الأصل مغارة، وإنما كانت تجويفاً طبيعياً في بطن التلة، تتنبّع فيها المياه في الشتاء، من دون أن يعلم أحد من أين تأتي تلك المياه، وهي تكفي حاجات دار النجار على مدار العام، وحاجات جملهم الأهوج، وحاجات بقراتهم وعنزاتهم، وحتى حاجات الجيران حين تشحّ المياه في الآبار.

وذات يوم اختفت مرتا، أخت سعيد الكبرى. أتى إلينا ليسأل عنها، وسأل الجيران، لكن أحداً لم يرَها في ذلك اليوم. فذهبت الأخت الثانية لاستدعاء خطيبها للمساعدة في البحث عنها، وكان ماهراً في قصّ الأثر، وكانت عائلته تسكن في بيت في الحارة الشمالية مقابل بيت أم نعيم، في أول النزلة التي تنتهي عند المقبرة، وكانت نظرات أم ناصر تمر فوق ذلك البيت في طريقها إلى البصّة. "شو السيرة، انشالله خير؟" سألت أم ناصر محاولة رفع صوتها أكثر ممّا يحتمل، فقالت الأخت المهرولة باختصار، كي لا تطيل الحديث، إن أختها مرتا اختفت. فتنهدت أم ناصر كأن أحداً ذكّرها بما لا يحتاج إلى تذكير، ودعت الله أن تنتهي الأمور بالتوفيق.

وذهب الخطيب للمساعدة في البحث عن المفقودة. وبعد أن قلبوا القرية وبيوتها رأساً على عقب، وسألوا الأقارب والرائح والغادي إذا كانوا قد شاهدوا مرتا، وبعد أن نشّف الوجل ريقهم مع اقتراب الغروب، عثر خطيب الأخت على فردة يتيمة من حذاء مرتا، مقلوبة قرب خرزة المغارة. فلم يقل شيئاً، وأتى من الإصطبل بالخطافة الحديدية، التي كانت تُستعمل لانتشال

السطل الغريق أو لتعليق الذبيحة، وربطها بحبل طويل، ثم أخذ يحرك الخطافة جيئة وذهاباً في جوف المغارة، حتى شعر بأنها نشبت في شيء ثقيل الوزن، فبدأ بجر الحبل المشدود. وجاءت الأم منعوفة الشعر مبحوحة الصوت تثنيه عمّا كان يفعله، إذ كيف يعقل أن تكون مرتا قد سقطت في المغارة.

لكن مرتا كانت قد سقطت في المغارة.

بعد ذلك الزمان بأعوام طويلة تزوجت إحدى حفيدات أم ناصر ـ وكانت هي أيضاً تدعى مرتا ـ بابن تلك الأخت، أي ابن الرجل الذي انتشل جثمان مرتا من المغارة. وأخذت مرتا تعمل في مخبز سعيد النجار، وكان زوجها عاطلاً عن العمل، يعاملها بالعنف كما أُشيع لأنها، كما كان يدّعي، لا تنتبه لأولادها. وجاءت مرتا ذات يوم إلى المخبز كعادتها في الرابعة صباحاً، وتختلف الروايات عمّا حدث لها بعد ذلك. سعيد قال للشرطة فيما بعد أنه استيقظ من نومه في الخامسة صباحاً على صياح العاملة الأُخرى في المخبز، فهبط الدرج المؤدي إلى المخبز، وسأل العاملة "شو صار؟" فأشارت مولولة إلى العجّانة الضخمة التي كانت قد أوقفَتها للتو. فارتقى سعيد السلّم القصير إلى فوهة العجّانة، وحين وجّه الضوء المتدلي من السقف في نهاية سلك أبيض مجدول كالحبل، رأى في الضوء الكابي أشلاء بشرية غريقة في الطحين المعجون بالدم. وحين هبط السلّم كي يستدعي الشرطة كاد يسقط حين ارتطم بفردة حذاء مرتا المقلوبة.

VI

الشاهدان

الشاهد يأتي بعد الخرزة الحادية عشرة في المسبحة؛ لكنهما شاهدان فقط بين الخرزات الثلاث والثلاثين، فشرّابة المسبحة هي الشاهد الأكبر. وأفخر المسابح ما كان من الكهرمان، أو "الكاربا" كما كانوا يسمّونها. ومن فضائل الكهرمان ـ فضلاً عن غواية النار الكدماء المكتومة في لونه، وصفاء النقرة حين، مترفقة، تدفع الإبهام بالخرزة فوق السبابة فتهوي فوق سابقتها ـ أنك حين تفرك خرزة ما بسرعة، جيئة وذهاباً فوق القماش الصوف، يتطاير الشرر منها بعد حين، فتستطيع هذه الخرزة إذا قرّبتها من نَسيلة هشة من قشّ الحصيرة، أن تجتذب القشة إليها بقوة المغنطيس.

مشدوهاً رأى هذا الأمر بأم عينيه، حين قام به طنوس الضرير، صاحب المسبحة، أمام المتحلقين حوله جلوساً قرب موقدة الحطب في زاوية المطبخ، حيث كانت العائلة تقضي ليالي الشتاء. "شوفوا الشرار كيف طاير من الخرزة!" قال طنوس الضرير وهو يحكها فوق فخذ سرواله الصوف، فنظروا ورأوا وآمنوا.

أخوه صاحب العلبة الصفيح سيقول بعد سنين في سيدني، قبل أن تتطاير دماؤه من شريانه الأورطي، بأن الأمور التبست أكيداً على أعين الحاضرين بسبب الشرر الذي كان يتطاير من حين إلى آخر من الحطب المبلول الذي كان يفرقع اندهاشاً حين تُلحوسه النار في عتمة المطبخ.

ربما كان كذلك. لكن النار لم يكن لها شواهد تفصل بين خرزاتها في منظومة اللهب، ولم يكن لفرقعات حبّاتها حين يتساقط بعضها فوق بعض ذلك الصفاء الذي للكهرمان. أمّا المسبحة فلها شاهدان على الشرر الذي يسبق المغنطيس.

أو هكذا يتوهمان حين تجتذب الحكاية حصيرة المطبخ من تحت المصطلين.

VII

تاريخ البرتقال الحزين

قال أبي الذي عاد للتو من الدكان، وهو ينشف بيديه رأسه المبلل، إن أم جورج التي تربطنا بها قرابة بعيدة، ألحّت على أبي حبيب، صاحب الدكان، أن يزن لها الكيلوغرامات الخمسة من البرتقال ليس دفعة واحدة، بل الكيلو بعد الآخر. فأطاعها أبو حبيب ممتعضاً، وسألها أبي بفضوله المعهود، وهو يُدخل برتقالاته في السلة، لماذا تصرّ على ذلك، فصمتت ولم تردّ وواصلت مراقبة وزن البرتقال. وكان أبي يتحدث إلى صديق له التقاه أمام الدكان حين مرّت بهما أم جورج الخارجة من الدكان مسرعة وألقت عليهما تحية المساء، ثم ترددت خطواتها تحت زخزخة المطر، فتريثت، ومن دون أن تلتفت نحو أبي قالت كأنها تحدث نفسَها إن البائع الكريم يرجّح عادةً كفّة البرتقال، فتُضاف بهذه الطريقة برتقالة واحدة إلى كل وزنة.

كنا ملتفين حول طاولة الأكل الواطئة التي صنعها لنا النجار، زوج أم جورج، وقد توسطها قنديل الكاز الذي أشعلته أمي للتو، بضوئه المكفهر، محاذرين أن تبقى أقدامنا فوق الطرّاحة وألاّ تمسّ جليد المصطبة، ومحاولين أن نلتقط ما تستطيعه ظهورنا المرتجفة من دفء الجمرات في "الكانون" الضائع في فضاء البيت، وأن نتفادى أسياخ الهواء التي تخترق البيت من حيث لا ندري، وقد تجمدت أكفّنا الزرقاء حول جمر البرتقالة داخل نصف الرغيف، عشاء تلك الليلة.

باكراً في صباح الغد، وكان اليوم الأخير في عطلة الشتاء، رافقت أخي إلى بيت حبيب لاستعادة دفتر التاريخ الذي كان قد أعاره إياه لينسخ ما فاته في فترة مرضه. كنا نرى أنفاسنا المتجمدة تهرول أمامنا، فنسارع للحاق بها، واضعَين أكفّنا تحت الإبطين التماساً للدفء، ومحاولَين ألاّ ندوس أكثر ممّا يجب على زجاج بُرك الوحل. مررنا في الزقاق أمام دكان أبي حبيب ورأيناه يفتح باب الدكان، فسأله أخي إذا كان حبيب موجوداً في البيت. نظر إلينا الرجل مهمهماً شيئاً ما لم نفهمه، وحجب كلماتِه ضبابُ أنفاسه، فواصلنا المسير، وقد سبقني أخي بخطوات غدت أكثر تصميماً بعد همهمة الأب.

حين طرق أخي الباب المشرف على الطريق من ارتفاع بضع درجات، لم يُجبنا أحد. فاستدرنا وهممنا بأن نغادر، ثم عدلنا عن الفكرة وأعاد أخي الطرق، وسارع في إرجاع يده إلى دفء إبطه، ثم تراجعنا يأساً إلى الدرجة الأولى، نخبط أقدامنا عليها تباعاً لنفض دبيب البرد. وبعد لحظات طويلة فتح حبيب الباب فاركاً عينيه، ثم تنحى جانباً داعياً إيانا للدخول. كانت مصطبة الغرفة على مستوى أعيننا، فرأينا وراء قدميه العاريتين فراشاً عارياً طُرح على

المصطبة العارية وقد انحسر اللحاف عن الجزء الذي كان نومه قد احتله. وحين رأى ترددنا، استدار إلى الوراء وانحنى وأمسك بطرف اللحاف وصرخ بأخته أن تستيقظ نافضاً اللحاف عنها. رفعت رأسها، مفغورة الفم، محاولة أن تشد ثوبها المحسور إلى أسفل، لكن نظراتنا كانت قد استباحت عريَها وكلسونَها الممزق، فأدرنا وجهينا احتشاماً، كما علمونا.

VIII

أرانب

الأصوات التي تعالت من قفص الأرانب في الليل أيقظت شكرالله فاستيقظنا على يقظته؛ أصوات لم تدُم طويلاً، لكنها كانت كافية لتخبرنا بأن مصيبة كبرى وقعت. أشعل شكرالله الشمعة في الفانوس المحمول ذي الزجاجات الأربع المموهة بالسخام، وخرج إلى الحاكورة، على الرغم من احتجاجات أمي وتشكيكها في سلامة هذا الفعل في هذه الساعة المتأخرة من الليل، فتقافزت خيالاته المرتعدة على جدران الباحة الداخلية وأشجار التين في الحاكورة. ووقفنا قرب الباب بوجل ننتظر عودته من جوف العتمة. وما لبث أن ركض عائداً، وصاح من أعلى الدرج الصاعد إلى الحاكورة، بصوت حاول ألاّ يُشَطّطه البكاء، أنه وجد باب "قنّ الأرانب" (هكذا كنا نسميه) مخلوعاً، وأن الأرانب فرّت من القفص في كل صوب، وأن علينا أن نأتي لمساعدته في العثور عليها. من خلال النعاس المبتور نظرنا جميعاً إلى أبي نستشيره، ونظر هو إلى أمي يستشيرها، وكانت أمي تنظر إلى فانوس شكرالله الذي قفل الآن راجعاً إلى الحاكورة لإنقاذ ما يمكن إنقاذه بمساعدة الضوء الشحيح، هامسة بأن الصباح رباح، والأرانب الهاربة يمكن جمعها حين يبهّق الضوء، وليس الآن، ليس في هذه العتمة وليس على ضوء هذه الشمعة الرقاص. وكان هذا كافياً لننطلق جميعاً نحو الحاكورة من دون انتظار القرار العائلي، مصممين على الإمساك بالأسرى الهاربين قبل اختفائهم في عماء الليل، فغداً الأحد، وإذا كانت جميع الأرانب قد هربت فذلك يعني هروب غدائنا معها.

حين بهّق الضوء اكتشفنا أن الأرانب بقيت في حدود الحاكورة، كأن رعباً ما حدث لها في الليل قَرْطَلَها ومنعها من الهرب، سوى أرنبين أو ثلاثة كما يبدو، عثرتْ على واحد منها في الصباح جارتنا أم زكي، مجرجراً نفسه بين أشتال الخس في حاكورتها، كسيح النصف الخلفي. ذلك الأرنب الكسيح كان الضحية العينية الوحيدة لهول الليل. وحين جلسنا على الحصيرة، متحلقين حوله طعاماً للغداء، تبادلنا التكهنات بشأن ما يمكن أن يكون قد حدث في الليل. كان واضحاً أن حيواناً ما، مفترساً، هاجم القفص في الظلام، ولاذ من الغنيمة بأحد الأرانب. إلاّ إذا كان شكرالله أخطأ بتعدادها النهائي، لأن أرقامه ما فتئت تتغير بتغير الرواية، ولأن عدّ الأرانب، حتى في وقت القيلولة، هو أمر مستحيل لأنها دائمة الحركة.

لكن إلياس رشيد، ابن صفّي، لم يقتنع بهذا الافتراض حين التقينا في الغداة. قال إن الجاني هو بلا شك كلبهم الأسود، الأعرج، الذي كان أبوه قد استغنى عن خدماته وطرده من ساحة البيت، وهو يجوب الآن شوارع القرية في الليل، باحثاً عن شيء يفترسه. قال إن الكلب

يلجأ في النهار على الأرجح إلى داخل "العبّارة الثانية"، وهي أنبوب التصريف الضخم الذي يمر تحت الشارع الرئيسي المؤدي إلى القرية، بمحاذاة كرم التفاح الذي لعائلة أبي أيوب، يعلوه من طرفيه جدار خفيض من الباطون بموازاة الشارع، كنا نجلس عليه أحياناً للاستراحة بعد سير طويل. وكانت "العبّارة الثانية"، بالنسبة إلينا، هي الحد الذي تنتهي عنده القرية، ولا يجوز إلاّ للشباب البالغين اجتيازه في مشاويرهم المسائية.

***

شكرالله كان صاحب فكرة تربية الأرانب في الصيف، لمجّانية العلف وسرعة اكتناز اللحم مقارنة بالدجاج. وكان قد أناط بي، وبأخي نخلة، الذي بدأ بعد ذلك بأعوام طويلة ببناء قنّ للدجاج في حديقة بيته الخلفية في سيدني، أستراليا، قبل أن ينفجر الأورطي في صدره بأسابيع، بأن نجمع الأعشاب من الحقول لإطعام المساجين. فكنا نذهب كل يوم أو يومين، قبيل المساء، إلى "باب الوعرة" أو "النقّارة" أو "جْميليا" أو "العنقور" أو "تين البيّاض" لجمع الأعشاب التي يأنفها المزارعون، فنملأ بها كيس خيش كبيراً تلتهم الأرانب محتوياته بأسرع ممّا كنا نأمل، ثم نعاود الكرّة. وكان شكرالله، في المقابل، مسؤولاً عن الذبح والسلخ، مرة في الأسبوع، بعد قداس الأحد. يراقب الأرانب في تجوالها ويختار أقلّها حركة ونشاطاً، فاللحم يكتنز مع الكسل، والإمساك بالأرانب السريعة كان مستحيلاً على أي حال. يقبض على أذني الأرنب ويستلّه من بين القطيع، فيهمد جسمه عن الحركة ويستسلم لمصير الذبح من دون أي مقاومة ملحوظة. أو هكذا كان يخيل لنا.

أمّا أرنبي فقاوم حتى ما بعد النهاية. كنت قد تعلقت به وتعلّق بي متجاوزين علاقة الضحية بمَن يزوّدها بالعلف كي تكون الضحية المثلى. أنتقي من أجله أكثر الأعشاب نضارة وطراوة، ويستكين هو تحت تمليسات يدي، ثم يركض في اتجاه أترابه فيشاكسهم ثم يرجع إليّ لأخذ المزيد. ثم جاء يومه بعد محاولات يائسة ومتواصلة من جانبي لإرجاء النهاية. ولم تزده هذه المحاولات إلاّ اكتنازاً، وإلاّ اقتراباً من النهاية. فتمنيت لو أني كنت قد بخلت عليه بالأعشاب، أو أني تجاهلته تماماً وتركته يموت من الجوع. لكن علاقتنا لم تكن ممكنة بأي حال من دون العلف الذي مهّد طريقه نحو السكين. أو هكذا أقنع نفسي الآن، بعد مضي هذه الأعوام كلها التي مرت بسرعة أرنب هارب من السكين. أمّا هو فلم يحاول الهرب على الإطلاق. ولماذا يهرب إذا كانت اليد التي منحته العلف هي نفسها اليد الأليفة التي أمسكت بأذنيه، إشفاقاً، حين انفغر عنقه مشدوهاً برهافة النصل. كنت كمَن يسلمه للذبح كي ينجو من الذبح. في لحظة النصل فقط اكتشف خديعة الحب، فحاول الهرب بكل ما تبقّى من قواه. أفلت من قبضتي، أو أن قبضتي تراخت بعد حزّة النصل كي تتيح له الإفلات، وحين أدرك انتهاء الفضاء وابتداء الأرض الصلبة تحت أقدامه، شالَ برأسه الذبيح نحوي، فنَوفر الدم من وريده على ساقي العارية، وحاول العَدْو، فسقط، ثم تحامل على نفسه ونطّ في الهواء، من حلاة الروح.

لا أذكر ما الذي حدث بعد ذلك. أراه الآن قافزاً في الهواء فأبقيه هناك معلقاً، قبل أن ينهي قفزته وينتهي؛ مذبوحاً من دون أن ينتهي الذبح، في إرجاء متواصل للموت. ولم أبقَ في الحاكورة كي أرى كيف يتعرى اللحم من جلده بجرّة واحدة، ولم أبقَ في البيت كي أشارك في التهام اللحم الذي ربيته على يدي، ولم أغسل ساقي من طَرْطَشَة دمه، وما زلت إلى اليوم أعتقد أن الحب جوع متواصل لا يُبعد النصلَ عن العنق.

***

كنا في طريقنا عصراً نحو "العبّارة الثانية"، أنا وإلياس وموسى وبهيج، مصممين على معاقبة الكلب الأسود الأعرج، والشمس تقذف رؤوسنا بجمراتها. قال بهيج أنه يشتهي سيجارة من عُلبتي الصفيح، "للبَوْرَدِة وتعديل المزاج"، كما كانت عمته نورا تقول. كنا نفرم أوراق العنب من داليتهم، سرّاً، كما تُفرم أوراق التبغ، ويسرق هو بعض الأوراق الرهيفة من دفتر "ورق الشام" الذي لعمّته، فنلفّ سجائر واهنة من ورق العنب الأخضر المفروم، نعلّقها في أفواهنا من دون إشعال، ونكتفي بتقليد "مَجّ" المدخنين، شاهقين الأريج الأخضر إلى رئاتنا.

أمّا في ذلك اليوم فقد أتى بهيج بدفتر كامل من "ورق الشام"، بورقاته الثمانين، سرقه من خزانة عمته، بغلافه المثلث الطيّات، المورّق بالأحمر الفاقع والأزرق السماوي.

وحين وصلنا إلى "العبّارة الثانية" وضع بهيج سيجارته على حافة جدارها الفوقي، تاركاً طرفها "المشتعل" نابزاً في الهواء، كما يفعل المدخنون حين تخطر في بالهم فكرة يحتاج تنفيذها إلى كلتا اليدين من دون إزعاج العينين بالدخان، وهبطنا إلى مستوى العبّارة.

وتماماً كما توقّع إلياس، كان الكلب الأسود مستلقياً في منتصف أنبوب التصريف الضخم الذي يمر أسفل الشارع، هارباً من القيظ. ومن دون أن نفكر للحظة انحنينا والتقطنا ما تيسّر لأيدينا أن تلتقطه من الحجارة، وبعد أن تعودت أعيننا على الظلمة الخفيفة داخل الأنبوب، تناوبنا على رشق الكلب بكل ما أوتينا من عنف الانتقام. رفع الكلب رأسه حين أصابه أول حجر وبحلق بنا مشدوهاً وارتفع عويله مالئاً أنبوب العبّارة الطويل، وأخذ يزحف هارباً نحو فتحة الطرف الآخر. فقطعنا الشارع من دون أن ننتبه لسيارة "التندر" التي يملكها لبيب شهلا، وهي السيارة الوحيدة في القرية تلك الأيام، عائدة بالعمال مبكرة على غير عادتها. وعلى وقع صريف فراملها، فاجأناه بوابل آخر من الحجارة، غير آبهين بسيل الشتائم الذي انهال فوق رؤوسنا التي كادت تنسحق تحت العجلات. فاستدار هارباً إلى حيث كنا في البداية. ولم نتوقف عن قذفه بالحجارة، متعاقبين على الجانبين، إلاّ حين أصابنا الإرهاق من مطاردته والملل من لعبة الانتقام، فاستغل هو الوهن الذي أصابنا وهرول هارباً في اتجاه كرم التفاح. فاقترح موسى بعد أن استرحنا أن ندخل كرم التفاح. قال إلياس إن الكلب الأعرج نال ما فيه الكفاية، فقال موسى يلعن أبو الكلاب أنا أدعوكم إلى أكل التفاح وليس مطاردة الكلب، فالكَرْم هو ملك عائلتي. تعجبنا من ادّعائه وقلنا إن الكرم كما نعلم يخصّ عمّه، فحلف، كما كان

يفعل دائماً، بشرفه وبكل ما هو غالٍ لديه، بأن عائلته تضمن الكرم من عائلة العم بين الحين والآخر، وأنه لم يكن ليدعونا إلى دخول الكرم لو أن الأمر كان غير ذلك. فصدقناه مبهورين بمنظر التفاح اللامع في وهج الشمس، ودخلنا.

كنا قد قضمنا القضمة الأولى وسال عصير التفاح من أفواهنا على الأصابع والثياب حين ارتفع صوت يهددنا ويتوعدنا من بعيد، أغرقناه بموجة أعلى من القضمات، آملين بأن نكون قد اختلقناه من تخوفاتنا. لكن الصوت ما فتىء أن انقضّ علينا مرة أُخرى، كبريق السيف المتقلب، كما جاء في سفر التكوين، بوعيد أشد لا يقبل الشك هذه المرة. فانطلقنا نركض مبتعدين عن مصدر الصوت الذي كان واضحاً أنه آتٍ من بيت أصحاب الكرم الحقيقيين، دار عمّ موسى، عند أطراف القرية، والذي يمكن منه مراقبة الكرم من بعيد. وكان واضحاً أن صاحب الصوت لم يستطع تمييز موسى من هذا البعد. ركضنا نحو الشرق، قاصدين "تين البيّاض"، آملين بأن يضيّعنا صاحب الصوت ونضيّعه، وحانقين على موسى المستغرق في الضحك من دون أي تفسير، وعلى أكاذيبه. وقبل أن نغادر الكرم، وانطلاقاً من الإيمان بأن حكم الإعدام قد صدر (خسرانِة، خسرانِة)، فلماذا لا نموت ببطون ملأى؟ تريثنا قليلاً وقطفنا ما نستطيع حمله من التفاح، وأطلقنا سيقاننا العارية للريح اللاهبة التي لم تكن أصلاً تهبّ إلاّ في رؤوسنا المرتعبة، وانقطعت أنفاسنا قبل أن نصل إلى ـ "تين البيّاض"، حيث اختبأنا ريثما تهدأ الأحوال.

وحين تجرأنا على العودة في اتجاه القرية من الشرق، مطمئنين إلى أن ما مضى من الوقت كفيل بأن يجعل فعلتنا منسية، وأن أصحاب الكرم عادوا إلى شؤونهم، وأن ساعة الغروب هي لنا كطاقية الإخفاء، اكتشفنا بعد المنعطف مباشرة أن صاحب الصوت كان بانتظارنا عند مشارف القرية، جالساً بطمأنينة على السلسلة الحجرية، يدخن سيجارة حقيقية. تسمّرنا في أماكننا، محاولين إخفاء ما تحمله أيدينا وراء ظهورنا، من دون أن تبدو جيوبنا منفوخة فوق اللزوم، وتذكّر بهيج سيجارته التي نسينا أمرها؛ وحين تبيّن صاحب الصوت موسى بيننا قهقه ورمى سيجارته على الطريق وطلب أن نقترب. فاقتربنا، نقدّم رجلاً ونؤخّر أُخرى، وَجِلين من ردة فعله، أمّا صاحب الصوت فتقدّم نحونا، والسيجارة ترتجّ بين شفتيه، وصفَع موسى كمَن يفعل ذلك كل يوم، وقال إننا نستطيع أن نحتفظ بالتفاح، "وْيَلاّ، كل واحد على بيتو." وإذ رأى أننا لم نصدق ما سمعته آذاننا، أعاد قوله وحثّنا على الذهاب قبل أن يستفقدنا أهالينا. وحين شرعنا في السير، سأل ما الذي كنا نفعله عند العبّارة الثانية قبل أن نتسلل إلى كرمه، فأخبرناه. رمى السيجارة بعيداً بنقفة من إصبعه، وقال إننا في غاية الهَبَل، وإننا قد ظلمنا الكلب الأعرج لأن الكلاب لا تهاجم أقفاص الأرانب، بل إن "الغْريرية" هي التي تفعل ذلك في ليالي الصيف، حين تتكاثر أعدادها في الوعر وتشحّ الفرائس، فتقصد أقنان الدجاج، وقد حدث ذلك لهم قبل ليلتين. ولم نكن نعلم ما هي "الغْريرية"، ولم نستطع أن نتصور لها شكلاً، فأخذنا التفاح رافضين تصديق صاحبه وسرنا مهزومين. ولم يلمس أحدنا التفاح فيما بعد.

ومع قدوم الشتاء أعلن شكرالله إنهاء مشروع الأرانب. أمّا ذلك الكلب الأعرج، وعلى الرغم من المياه التي جرت داخل "العبّارة" على مرّ السنين، فإن عويله ما زال إلى اليوم يملأها.

حاشية

"ورق الشام" مكتوبة بالذهب، بالخط النسخي، فوق الأحمر الفاقع على الطيّة الوسطى، أي وجه الدفتر، تحتها "بيروت"، على الحافة الجانبية الرقيقة للدفتر؛ ثم اسم الأخوين صبحي وصلاح الدين شُربجي، صاحبَي المصنع في بيروت، على الطيّة الداخلية، بالخط الريحاني المتشابك، جاعلاً سقوط الحاء من اسم الأخ الثاني، والذي انتبه له إلياس ذلك اليوم، عسير الاكتشاف للوهلة الأولى. أمّا على طول الغلاف الداخلي، تحت رسم "التاج المرصع" المحفوف بعبارة "فليحيَ الوطن"، والذي يزين أيضاً الجانب العلوي من الأوراق، فيمكن أن تقرأ حين تنفَد كل الأوراق، وتحت عنوان "اعضدوا مصنوعاتكم الوطنية"، هذه الديباجة بالخط النسخي:

> إليك أيها العربي الصميم؛ إليك أيها الحر النبيل؛ ورق الشام الممتاز على سائر الماركات، وهو صاحب التاج المرصع بالنسبة لنظافته ونقاوته من كل غش. بعد جهود خمس سنين توفقنا لأحسن ورق مخفف لأضرار الدخان لنخلصكم من باقي الماركات، وسمّيناه بالشام تيمناً بعروس بلاد العرب، فيجب على مَن يحب أن يخدم وطنه وصحته أن يستعمل ورق الشام.

وتنتهي الديباجة بتوقيع "صبحي وصلاح شربجي"، ويليه التذييل التالي:

جائزة ألف ليرة لمَن يُثبت ورق سجاير أطيب من "ورق الشام".

وحين تفتح الدفتر تطالعك هذه الأبيات على الورقة الأولى، كأنها صفحة العنوان لكتاب خالٍ من الكلمات ستلتهمه النار صفحة في إثر صفحة:

يا بني الأوطان جمعاً
ورق الشام خذوه
فهو صحي لـــذيذ
جرّبوه تعرفوه
ومن الغش خليٌّ
فاشتروه واشربوه

وقد صوّبها بهيج: "فاسرقوه واشربوه". ولا يتجاوز حجم الورقة الرهيفة، داخل الدفتر المطوي حولها ثلاثاً، السبعة سنتيمترات طولاً والأربعة سنتيمترات عرضاً؛ أي ثمانية وعشرين سنتيمتراً مربعاً من اللذة المحرّمة. وكانت الشرطة حين تأتي إلى القرية في ذلك الزمان للاطمئنان على استتباب الأمن، ولا تجد ما يستدعي قدومها، تعتقل المدخنين الذين تجد في حوزتهم ورق الشام المشبوه، لكونه "بضاعة مهرّبة" آتية، كما يقول الشاعر، من "سندس الغُوطة والدنيا غروبُ..."

IX

السلحفاة

يجب أن نمشي بسرعة السلحفاة، قال لنا شكرالله، كي نرى السلحفاة. فأبطأنا السير من دون تفكير، واستسلمنا لبرودة الصباح، مبحلقين في مكامن الصخور في محجر أبي مسعود. نسينا كيف انتهى بنا السير إلى هناك، ونسينا ما الذي خرجنا نبحث عنه في هذه الساعة الباكرة، قبل أن تخطر السلاحف على بالنا. استسلمنا للسير، مبتعدين عن كل ما يمتّ بصلة إلى القرية التي اختفت بيوتها عن أنظارنا الناعسة. تذكرنا فطورنا ـ نصف الرغيف المدهون باللبنة، وفنجان الشاي غير المحلّى لانعدام السكّر، فازداد شعورنا بالجوع. يجب أن نمشي بسرعة السلحفاة، قال لنا شكرالله، كي نرى السلحفاة. لكن السلحفاة التي رأيناها لم تكن تمشي على الإطلاق. كانت مستلقية على ظهرها، تجذّف يأساً في هواء الصباح بأطرافها، كزورق مقلوب. اليأس لم يكن هناك على الأرجح، بل أضيف إلى المشهد مع مرّ السنين.

التقطها شكرالله. قلَبها وأعادها إلى الأرض البليلة بالندى، فمشت السلحفاة مِشية غير المصدق، واشرأبّ عنقها وتمايل رأسها كأنما تريد أن يهرب جسمها بعيداً ويسبق القوقعة المتباطئة. التقطها شكر الله، وقال إنه سيحول القوقعة إلى منفضة للسجائر، لاستعمال أبي، وخصوصاً الضيوف. تناقلتها أيدينا في طريقنا إلى البيت، ممسكين بها بعيداً عن أنوفنا، هرباً من رائحة الدخان.

أخذ الشاكوش والإزميل من صندوق الأدوات الخشبي الذي لأبي وباشر، بضربات دامية عديمة الصدى، فصل القوقعة عن اللحم الملتحم بها من الداخل. أزال قوقعة البطن أولاً، ولا نذكر كيف فصل اللحم النابض عن قوقعة الظهر. ربما كنا قد فقدنا كل اهتمام بما كان يفعله لأن الأمر طال أكثر ممّا توقعنا، وربما كان ما يفعله فوق احتمالنا، فابتعدنا عن المشهد، متقوقعين داخل شؤوننا الأُخرى. وربما لم نكن واقفين هناك، على الأرجح، بل أُضفنا إلى المشهد مع مر السنين.

أمّا القوقعة الفارغة من سلحفاتها فإن أحداً لم يجرؤ على استعمالها كمنفضة للسجائر، لأن دموع شكرالله كانت تنهمر بصمت كلما أُشعلت قربه سيجارة.

X

عقرب الحليب

العقارب التي تفوع من جحورها في ليالي الصيف تكون أنسب لمتطلبات الطقس، ولا سيما إذا كانت شقراء اللون، لأن عقربة الشتاء السوداء يكون السم متجمداً في ذيلها، ولذا فهي ليست أصلاً بعقرب، وبالتالي فهي لا تصلح إلاّ طعاماً لجمر فرن الخبز. وقوام الطقس وضع العقربة بعد التقاطها بالملقط في وعاء عميق أملس الجدران، تليه دعوة الأم إلى إغراقها بالحليب لتُمنح للوليد حصانة أبدية ضد لسعة العقارب. لكن الأمر لم يكن بهذه السهولة. فمع أنه كان يُطلب منا حين نصعد للنوم على السطح أن تكون عيوننا مفتوحة عشرة عشرة بحثاً عن العقارب، ومع أن القمر كان من المفروض أن يسهّل علينا المهمة، فإن ظهور شبح العقربة من ناحية، واختفاءها في ناحية أُخرى، كانا من السرعة بحيث لا ننتبه لهما إلاّ بعد فوات الأوان. فنواصل اللعب بملقط الموقد الذي أتينا به معنا لالتقاط الضحايا، حتى يطلب منا أحد الكبار، وقد طلع خلقه، الكفّ عن الطقطقة لأنها كفيلة بإيقاظ الحيّات في أوكارها، تماماً كالصفير في الليل، والحيّات هي آخر ما نريده في الليل، إذ لدينا ما يكفينا من العقارب.

كانت الدنيا قد بدأت تعبث بالروائح التي تركتها نهايات الربيع على عتباتنا، فيفغو ويملأ رئاتنا ثُغاءُ الحملان والجداء والعجول تعدو خلف أمهاتها، ورائحة الخبز المنطلقة من الأبواب المفتوحة تعدو وراءنا.

لم أعد أذكر ما الذي أرادت أمي في ذلك الصباح أن نأتي به من بيت أم سليم في الحارة الشرقية، لأننا نسينا ما الذي أتينا من أجله حين وصلنا إلى بيتها ورأينا زوجة ابنها تخضّ الحليب، جالسة على المصطبة المرتفعة خارج البيت، وبقربها وليدها الغافي داخل طمأنينته،

وقد أحاطت جرّة الخضّ والإكليلَ الموضوعة عليه بفخذيها، تدفعها أمامها بكلتا يديها، وتعيدها حالاً إلى صدرها المُنطبِط على إيقاع الخض، فنسينا تماماً ما كنا أتينا من أجله، إذ تناهى إلينا بين الأصوات المكبوتة التي تُصدرها لَحْوسات ألسنة الحليب المخضوض داخل الجرّة، صوتُها المتهدج يسألنا، وقد توقفت نطنطات الصدر، ما الذي نريده.

لم نُحِر جواباً، فدعتنا إلى صعود الدرجات، وفتحت فم الجرّة وغمست في الحليب قشّة طويلة وسحبتها، ثم لحست كُتل الزبدة الصغيرة التي علقت بها، وسألتنا إذا كنا نريد كسرة خبز مدهونة بالزبدة الطازجة. ومن دون أن يستشيرني رفض أخي العرض السخي، وقال لها متأتئاً إننا نريد سؤال حماتها أم سليم عن شيء ما. وما إن أنهى كلامه حتى خرجت أم سليم من الباب، حاملة وعاء قالت لكنّتها إن فيه ما كانت تريد من زمان أن تعثر عليه من أجل حفيدها الصغير ـ عقربة شقراء، عليها الآن أن تغرقها بحليبها كي تمنح وليدها مناعة أبدية ضد سمّ العقارب. ولم تلحظ أم سليم وجودنا حين أهابت بكنّتها أن تباشر بإغراق العقربة، وتدع جرّة الخضّ جانباً.

وكانت العقربة تدور داخل الوعاء الأملس باحثة عن مخرج، ممتشقة ذيلها تأهباً لكل طارىء، باعثة الرعشة في فرائص الأم الشابة التي تملّكها الرعب فجأة حين أدركت أن القضاء قد حمّ وأن لا مهرب. وتهيب بها أم سليم ألاّ تتراجع، فالفرصة التي سنحت الآن مَن يدري متى ستسنح ثانية، ومَن يدري فقد تصل العقربة إلى الوليد قبل أن تسنح. فترضخ الأم بتهيب تحاول إخفاءه بضحكة متهدجة، ويتخضب خداها وتنفرج شفتاها وقد تربعت على الأرض غير آبهة لانحسار كِفاف ثوبها عن فخذها التي اشرأبت منابت الشعيرات فيها ترقّباً، وتحاول بأصابع مترددة أن تدفع الوعاء قليلاً عن صدرها لئلا تعكّر خربشات القوائم صفاء حليبه، بينما تحفن يدُها الأُخرى ثديَها من ستر حمّالته المُتَشْتَشَة، وتدع عذوبته تنهمر فوق الوعاء بحلمة منتصبة تصوّبها نحو العقربة التي راحت تهرول في حلقة فارغة مبللة برغوة البياض. ولا تكفّ الأصابع عن اعتصار الثدي، ولا يكفّ الحليب عن التدفق حتى بعد أن تكفّ القوائم عن التجذيف ويفقد الذيل انتصابه ويهوي في بحيرة الموت الناصعة. ثم تفطن اليد التي حاولت قبل قليل دفع الوعاء بعيداً عن الصدر إلى الثوب المنحسر فتسحبه فوق عري الفخذ التي استكانت شعيراتها، بينما تكفّ اليد المعتصرة بالتدريج عن استحلاب الحلمة التي ستعاد، عمّا قليل، مُنَهْنَهة إلى نعاس حمّالتها.

وتنتبه أم سليم إلى وجودنا المشدوه، وتنهرنا بلهجة لم نكن قد ألفناها منها فيما مضى: يلاّ كل واحد على بيته!

XI

حبل الغسيل

كان واقفاً في الساحة الخلفية لبيت ما، أحد البيوت التي تنقّلوا بينها على مدار السنين، وكانت سلة الغسيل قرب قدميه فوق العشب الذي كان قد استطال من الإهمال وتمدد الآن على

أرض الساحة. شمس نهاية أيلول أطلّت فجأة من خلف سطح القرميد، وقطة الجيران السوداء كانت تتمخطر فوق العشب متظاهرة أمامه بأنها غير معنية بتاتاً بمراقبة ذلك الثقب الصغير حيث تقيم الفأرة، والذي وشى به تراكم التراب قربه. كانت النشافة الكهربائية قد تعطلت في الليل، فأخرج حبالاً كان أخفاها في زاوية مظلمة من زوايا المخزن، استعداداً لطوارىء من هذا القبيل، ونصبها بين الشجرتين اللتين في الساحة الخلفية وبين جدار البيت. لم يتساقط الرذاذ من الثياب التي نفضها، فعَصْر الغسالة ترك الثياب على حدود الجفاف. سطل الملاقط الخشبية كان بقربه فوق العشب، ملاقط جديدة تُستعمل لأول مرة، فانحنى ووضع في فمه بعضها، بحركة لم يدرِ لأول وهلة كيف حضرته ومن أين تعلّمها، وراح ينشر الثياب وفقاً لألوانها، يضع بعضها على الحبل فينخفض الحبل تحتها مشدوداً، ويحرك ويبدّل بينها، ثم ينفض كلاً منها وينشر أكثر أطرافه ملاءمة على مدى الوتر، مثبتاً إياه بملقطين. ثم سرعان ما تخلى عن الفكرة لأن ظلال الألوان كانت أكثر من أن تتناسق في ترتيب معين.

ما الذي تفعله بحقّ السماء؟ قالت له ابنته التي وقفت بقربه فجأة، مفغورة الفم، ترى للمرة الأولى في حياتها حبلاً لنشر الغسيل، ليس له في مفرداتها باللغة التي تعرفها كلمة تدل عليه. فتوقف عن النشر وشرح لها، فهزت برأسها غير مصدقة لما يقوله، وعرضت عليه أن تساعده. أخذ يتأمل الثياب الباقية في السلة، ثم رمى إلى داخلها القميص الذي كان يحمله، فانكبّت الشمس دفعة واحدة في السلة وطرطشت ألوان الثياب، وصفنت القطة إليها وقد شنّت بأذنيها مصغية لرذاذ الألوان، غير حافلة بالرأس المنمنم الذي أطلّ مدهوشاً من الثقب الصغير، وهبّت نسمة رفرفت الثياب المعلقة على حبل الغسيل، ففغت رائحة السماء، وامتلأ بتلك النشوة التي تبعثها فينا الأمور البيتية العادية، كرائحة الخبز الخارج من فرن الحطب متورد الوجنتين، حين يذكّرنا نشر الغسيل في يوم مشمس بقول الشاعر بأن على هذه الأرض ما يستحق الحياة.

***

كانوا يسمونه حبل الغسيل، مع أن الغسيل لم يكن يُنشر عليه إلاّ خلال يوم واحد في الأسبوع، وغالباً ما يكون يوم السبت. أمّا في باقي الأيام فيبقى مشدوداً بارتخاء بين التينة البياضية وجذع شجرة يابس قديم، شبه مستقيم، لا يدري أحد من أين جيء به وزُرع في طرف الحاكورة. وكان الحبل قد اكتسب مع الأيام لون التينة ولون الجذع، فكان ظله الرمادي الرفيع يرافق ألعابهم وشيطنتهم على أرض الحاكورة التي رصّتها أقدامهم على مدار الأعوام، فلم يعد في قدرة أي سكة محراث أن تفلحها، كما كانت الجدّة تقول لهم نادبة كلما أسعفتها الذاكرة. وكانت أمه تطلب منه أحياناً أن يترك اللعب ويساعدها في نشر الغسيل، ليناولها الملاقط الخشبية، رمادية كالحة تآكلتها الشمس، متلافياً الرذاذ المتناثر من الثياب التي تنفضها الأم بعنف الإرهاق كي تختفي جعلكتها أو تكاد، فتتراكض الدجاجات النحيلة ناكشة

التراب بمناقيدها بحثاً عن قمح الرذاذ. وكانت الرائحة تتناثر حوله، رائحة الأم مشعشعة برائحة الغسيل الذي بقيت رائحة الصابون معشّشة فيه لشحاحة المياه. وكان للملاحف والشراشف البيضاء رائحة خاصة تميزها من باقي الغسيل، رائحة هي أقرب إلى اللون، رائحة "النيلة" التي كانت تضاف إلى مياه الشطف فتضفي على الملاحف والشراشف توشيحاً أزرق واهناً يسمّونه الأزرق السماوي، وتضفي على الحاكورة، حين يحرك النسيم بَلَلَ الغسيل، شيئاً من رائحة السماء. وقبل أن تغيب الشمس يغسل يديه من ألعاب النهار ويتبع أمه التي تأخذ ملاقط الغسيل عن الحبل، وتقبض بأسنانها على ثلاثة أو أربعة منها قبل أن تلقي بها في سطل الملاقط، وتكوّم الشراشف والملاحف بين ذراعيه فتغرق الحاكورة بالتدريج في الأزرق السماوي الذي يغمره، حتى تنتهي الأم من ضبّ الغسيل وتأخذ عنه كومة الشراشف، فيعود إلى شيطنته، وتدخل هي إلى البيت، وتأوي الشمس إلى دار الغياب.

XII

قنديل البحر في صور

سبقتنا العتمة، وسبقَنا المطر. والقنديل نمرة أربعة الذي كان يجب أن يكون موضوعاً على عتبة الشباك، كما كان الاتفاق وكما قالوا لنا، لم يكن هناك، ولذلك حتى لم نرَ البيت. بحثَت أنظارنا عنه حيث كنا نتوقع أن يكون، لكنه لم يكن هناك. قلنا ربما تأخرنا ووصلنا بعد أن نفد الكاز من القنديل، وربما ابتلعت عتمة المطر البليلة ضوءه. أمّا أن يكونوا قد نسوا إشعاله، فأمر لم يخطر لنا على بال إلاّ بعد ذلك بأعوام طويلة، حين كنا نسترجع مسيرة تلك الليلة، بعد أن كان البيت قد هُدم وأقيمت مكانه عمارة ذات طبقتين توقّف العمل فيها قبل أن تنتهي، فبقيت فاغرةً فتحات أبوابها وشبابيكها على العراء. أمّا الآن، وقد طمست العتمة البيت والقنديل، فقد توقفنا مطأطئين حين فاجأنا انهمار المطر.

***

في صور، في أواخر سنة ٢٠٠٣، سبقتنا العتمة، وسبقنا المطر، لكننا تمكّنا من الوصول إلى المدينة القديمة في آخر النهار، خلافاً لما كنا نتوقع. توقفت السيارة دون باب الزقاق الضيق، وقال السائق إن الكنيسة، بحسب ما يذكر، يجب أن تكون في نهايته، مع أنه كان هنا للمرة الأخيرة قبل أكثر من خمسة عشر عاماً، يومَ لم تكن الحرب الأهلية بعدُ قد انتهت. سرت، هارباً من المطر، في الزقاق المسقوف، يترشّح غبشُه من القناطر الخفيضة، على الرغم من المصابيح القليلة التي تناثرت مُنهكةَ الضوء على مداه. حين انتهى الزقاق انفتحت سماء الغسق فجأة، صافية كعين الديك، وظهرت بوابة الكنيسة عن يساري. نظرت إلى اليمين باحثاً عن البيت، لكني لم أرَ سوى زاوية سور حجري أعلى قليلاً من قامتي، يبدأ من آخر الشارع الذي امتد مستقيماً أمامي ثم يلتف بزاوية قائمة نحو اليمين. البيت، كما كانت أمي تحكي،

كان ذا طبقتين، فهل يمكن للسور أن يحجبه الآن بهذه الصورة؟ إلى يساري، وقريباً من بوابة الكنيسة، شبّهتُ بقايا جدار كوّنَتْ حجارتُه المنهارة ما يشبه الدرج. واقفاً على الجدار نظرت خلف السور. لم يكن هناك سوى الخلاء. ساحة خالية إلاّ من شجرة عارية، قد تكون تينة قديمة، بينها وبين جدار البيت الذي في نهاية الساحة يمتد حبل غسيل نُشر عليه بعض الثياب التي نُسيت في المطر، وأثقلها البلل فتدلّت من الحبل من دون خفقان. أنا لم أرَ الحبل، ولولا الثياب المتدلية منه لما شعرت بوجوده. الكاهن الختيار الذي لقيته داخل الكنيسة أراد إقناعي بمشاركته صلاة الغروب قبل أن يجيب عن سؤالي، فاعتذرت. من بيت مين أمّك، سألني. فقلت له. فقال إن البيت ذا الطبقتين هُدم قبل خمسة عشر عاماً. صمتنا معاً، كأننا نحاول، كل على طريقته، أن نتذكر البيت قائماً ونتناسى الهدم. كيف يمكنني من هنا الوصول إلى شاطىء البحر؟ فقال، البحر في هذه الساعة؟

لم أعد إلى السيارة، بل سرت في الاتجاه المعاكس، نحو شاطىء البحر. بحر صور. الشاطىء الذي كانت تلعب على رماله قبل أكثر من خمسة وسبعين عاماً، يوم كانت في الثامنة. أضواء مصابيح الشارع من ورائي موّجت الظلال الخافتة على الرمل. وفجأة عاد المطر، وغمرني مدّ هواء البحر، فملأت منه رئتَيّ ثم انحنيت لأحفن قبضة من الرمل، كما أوصتني. حين رفعت عينيّ رأيت في الظلام قبالتي قارباً صغيراً يتداعى فوق الموج، وقد عُلّق قنديل في مقدمته، فانقبضت أصابعي حول الرمل المبلول.

قبضة الرمل تلك، والتي احتفظتْ بها دائماً في صحن قرب سريرها، وُضعت قربها في التابوت بعد أربعة عشر عاماً. لم تعد إلى صور التي تركتها يوم كانت في التاسعة، لكن تراب صور عاد إليها.

XIII

باب الوعرة

في آخر المساء تأتي ابنته لتذكّره معاتبة، بشيء من الغضب المصطنع لفتاة في العاشرة، مؤكدة كلامها في المواقع الملائمة بخبطات قدم حازمة على البلاط البارد، بأن موعد نومها فات من زمان، وأنها نظفت أسنانها من زمان، وأنها أنهت قراءة الرواية، وأنها جلست تنتظره في فراشها من دون جدوى، وأنها، فوق ذلك كله، لا ترتاح أبداً لصوت المطر. وكانا قد أصبحا في أعلى الدرج الصاعد من الطبقة الأرضية، عديمة النوافذ، فتمنى وهو يصعد وراءها، وقد تناهى إليه صوت زخزخة المطر متداخلة بأنين خشب الدرج، لو أنه يستطيع مثلها أن يخترع الأمور، ثم يتركها تضمحل وتتلاشى بهذه السهولة. لكنه سألها وشوشة، كمَن أضاع صوته، باللغة التي لا تفهمها: "أهناك لحظة نبدأ فيها بتسمية الدموع بكاء؟ وماذا نسمّيها حين لا يراها أحد؟" فقالت، وقد وصلا إلى فراشها، أنها لا تفهم عادة ماذا يقول، وخصوصاً حين يخاطبها بهذه اللغة السرية، ثم ارتمت متأوهة كعجوز عادت لتوها من يوم حصاد طويل في قريته البعيدة، فابتسم لفكرة الحصاد في هذا المطر، ثم ساعدها في إحكام اللحاف الريشي

حول كتفيها، في وضعها المحبب، وقد برزت من تحته أذن الدبّ فقط، رفيق نومها الأثير. جلس بقربها على الفراش، كما عوّدها منذ أن وُلدت، على الرغم من اعتراض أمها الراحلة، ينتظر أن تنتظم أنفاسها قبل أن يغادر غرفتها على رؤوس أصابعه نحو الباب، ولم يدرِ كيف، من أقاصي الأرض، جاءت إليه هاتان الكلمتان وهو يغلق الباب خلفه: "باب الوعرة". هكذا، فجأة، من أعماق الليل، على إيقاع أنفاسها وتنقير المطر المكبوت على زجاج النافذة، خطرت على باله هاتان الكلمتان، "باب الوعرة". هكذا، كأنها اسم يخطر على البال حين لا ندري كيف نتعامل مع الدموع التي نتخيلها تطفر من العينين وتتريث على شفير الجفنين، قبل أن تبلّل الرموش ثم ينساب دبيبها على الوجنتين. "باب الوعرة"، هكذا، من سحيق طفولته، يوم لم يكن بعد قد بلغ عمر ابنته، بلغة لا يفهمها أحد.

إذا غابت الشمس فذلك يعني أنها دخلت "باب الوعرة"، حيث تنتهي القرية ويبدأ ذلك الوعر الذي تتدحرج الشمس بين نيران أشجاره غرباً حتى البحر. ولم يكن يومها يدري ما هو ذلك البحر المضرج، وأين هو بالضبط ذلك الباب الذي سمعهم يتحدثون عنه. كان هناك قطعة أرض للعمّة جليلة في آخر الدرب الصاعدة نحو الأفق بعد آخر بيت في الحارة الغربية من القرية، وفي المرة الأولى التي وافقوا فيها على أن يأخذوه معهم لمساعدة عائلة العمّة في زرع الدخان، وقف هناك مشدوهاً، حين وصلوا، باحثاً عن ذلك الباب الموعود في كل اتجاه. وحين سأل بعد تردد أين الباب الذي تحدثوا عنه رفعوا ظهورهم المحنية، تباعاً، والأشتال الخضراء في أيديهم، وأغرقوا في الضحك، ثم عادوا إلى الانحناء ومواصلة العمل المضني من دون أن يكلفوا أنفسهم العناء البسيط الذي قد تتطلّبه الإجابة عن سؤاله. طفرت من عينيه دموع لم يكن يود أن تطفر أمامهم، كمَن يريد إرجاءها للبكاء على أبواب السنين الآتية. أجل، كان هناك وعرة تمتد على مدّ عينك والنظر، لكن بابها لم يكن هناك، قائماً، كما تخيله، في عرض الطريق. فخطر له حين عاد إلى البيت في آخر النهار، أن رؤية الباب ممكنة فقط من فوق سطح البيت. فكان، وقد غدت أمسيات مطلع الصيف رقيقة الحواشي، وإخوتُه لاهين عنه وعن دوران بالهم عليه كما أوصتهم أمهم، يصعد وحده إلى سطح البيت، متسلقاً السلم الخشبي المتداعي، المتكىء على الجدار الخارجي، بدرجاته التي تآكلتها الأقدام فصارت كظهر جمل الجيران، لكن أنينها الخفيض كان ألطف كثيراً، وينظر إلى الغرب باحثاً عن ذلك الباب الذي للوعرة. وكان دائماً يلهيه عن البحث شريط أزرق بدأ بالتخضّب، يوشّح عَرْض الغرب، بين الجبل الذي تأخذ قمته بالوميض المتقطع مع أول ضبّة العتمة، فيسأله عمّه العائد من الحقل، بعد أن يحذّره من الاقتراب من حافة السطح، إذا كان يمكنه بعد أن "يُشبّه قنديل مار إلياس"، كما كان يسمّي فنار الكرمل البعيد؛ وبين الجبل الآخر على اليمين، الغارق بالتدريج في بداية الظلام، حيث كانت ذات يوم، ومحَتها اللغة الأُخرى، البصّة التي أتت منها أم ناصر ذات العصبة السوداء لتقيم مع ابنتها نجمة، جارة العمة ماري. وكان قد قرأ بعد ذلك بأعوام طويلة حكاية مدينة النحاس في ألف ليلة وليلة، والتي تقع في آخر الغرب، بأبوابها الخمسة والعشرين التي لا يبدو لها أثر من خارج الأسوار، ولا تُفتح إلاّ من داخل المدينة. وكان يستيقظ

في الليل مرعوباً: إنه لن يعثر بعد اليوم على باب قريته.

مرت الأعوام، مرورَنا بالأبواب التي تمر بنا ولا نفتحها، ووجدَت الحبيبة المنحولة نفسها ذات يوم، كما يريد أن يتخيلها، تقود سيارتها في اتجاه قريته، لأنها كانت تود كتابة مقالة صحافية عن امرأة لاقت حتفها في حادثة مروعة في مخبز القرية. وضاعت في الطريق إلى قريته، وسألت أناساً لا تعرفهم، بلغة لا تريد أن تعرفها، عن الوجهة الصحيحة. وصلت إلى القرية ساعة العصر، ونسيَت ما حضرتْ من أجله وتوجّهت نحو الغرب، كأنها تريد للضوء أن يتريث قليلاً قبل النهاية. وسألت أناساً خُيل إليها أنها تعرفهم، بلغة تعرفها ويعرفونها، كيف الوصول إلى "باب الوعرة"، فنظروا مشدوهين إليها، كأنها هتكت سراً من أسرارهم. أخذت الطريق الغربي، حتى وصلت إلى نهاية الطلعة، ثم توقفت كمَن يخشى البحرَ وقد نصب كمينه المضرّج في نهاية الأفق. أوقفت سيارتها، وطرقت باب البيت الذي أصبح الآن البيت الأخير، من دون أن تدري أنه مبنيّ على أرض العمة جليلة، وسألت عنه من دون أن تذكر اسمه، ولم تعد تدري ما الذي تود أن تسأله، وما الذي سألته فعلاً: هل عاد من مهجره؟ هل يقيم هنا؟ هل ترك لها خبراً أو رسالة؟ وأين هو "باب الوعرة" ذاك، الذي حدثها عنه ذات يوم؟ فقال لها الشخص المشدوه الذي فتح لها بابه أنه لا يعلم قط مَن وما الذي تتحدث عنه، لكنه في غاية العجب من أن شخصاً غريباً عن القرية يعلم أن هذا الموقع ما زال، في ذاكرة المسنّين من أهل القرية، يدعى "باب الوعرة". فشكرته وتركته واقفاً في الباب واستدارت، وواصلت سيرها نحو الغرب مبتعدة عن سيارتها، مُحكِمة قبضتها حول علبة صغيرة من الصفيح. واستطال ظلها شرقاً ملامساً جدار أحد البيوت الذي اتكأ عليه ذات يوم سلّم خشبي قبل أن تستعيده العتمة إليها. وانتهى فجأة تحت قدميها أسفلت الشارع، كالنهار، فسارت في درب خالط الغبَش ترابها، بينما لم يبقَ من الشمس الغاربة إلاّ حمرة نحاسية واهنة تتلكأ في أطراف الوعرة. ثم رأت أمامها باباً في عرض الطريق، ولم ترَ في الأمر أي غرابة، كأن الباب قائم هناك من قديم الزمان، وكأن الأبواب يمكنها أن تكون مزروعة هكذا على عواهنها في عرض الطريق؛ باباً تآكلت خشبَه ذكرياتُ العابرين الذين مروا به ولم يروه. فتقدّمت نحوه تقدّم العائد إلى بيته بعد طول غياب، ومن دون أن تطرقه فتحته ودخلت. ■